صـــراع الهويـــات ومستقبـــل الســـلام فـي الســـودان
منظـور سوسيولوجـي لمسألـة الجنـوب

عبده مختار موسى

رئيس قسم العلوم السياسية، جامعة أم درمان الإسلامية ـ السودان.

مقدمـة

عند ذكر مسألة جنوب السودان ــ أو علاقات الجنوب بالشمال في السودان ــ يتبادر إلى الذهن مجتمع سوداني غير منسجم وفي غاية التعقيد والتعدد (Pluralistic). وعندما يتناول التعدد الجوانب الثقافية والدينية والعرقية، يكون الناتج في الغالب مجتمعاً غير متجانس (Heterogeneous). مجتمع بهذا التوصيف يحتاج إلى عملية (استجناس) أو «هرمنة» (Homogenization) لتحويل هذه الفسيفساء الثقافية الإثنية إلى تنوع يثري وحدة مستدامة يكون قِوامها بناءً اجتماعياً متماسكاً (Coherent). هذا هو دور الباحث والمثقف والنخبة ووسائل الإعلام أكثر من كونه مسؤولية السياسي.

ربما يصدق القول إن مشكلة جنوب السودان قد تفاقمت ــ ضمن عوامل أخرى ــ بسبب عجز النخبة السودانية عن تحقيق الانسجام بين مكونات المجتمع السوداني. ولأسباب تاريخية وعوامل موضوعية ــ يشير إليها هذا البحث بالتفصيل ــ ظهرت أزمة ثقة بين الطرفين ــ على مستوى النخبة السياسية.

ثمّ تفاقمت الأزمة، واستعصت المشكلة، بسبب نوع المنهج الذي اعتمدته النخبة السياسية (الشمالية) الحاكمة في حل هذه المسألة. هذا المنهج ارتبط بالعقلية التي تعاملت مع المشكلة منذ بدايات تمظهرها في شكل تمرد في خمسينيّات القرن العشرين. فركزت تلك العقلية على الحل العسكري في فترة الفريق إبراهيم عبود (١٩٥٨ ــ ١٩٦٤). ثمّ انتقلت إلى الحل السياسي (فترة حكومة أيار/مايو ١٩٦٩ ــ ١٩٨٥) وفترة الإنقاذ منذ ١٩٨٩م وهو منهج أفضل، ولكنه أطال أمد الحرب، من هدنة إلى هدنة، ومن مفاوضات إلى أخرى. ولم تتمكن النخبة الشمالية من التوصل إلى اتفاق مع النخبة الجنوبية إلا بعد أن استوعبت أهمية الأبعاد الأخرى في المشكلة: البعد الاقتصادي ــ الاجتماعي وما يرتبط فيه من اعتراف بالظلم الاقتصادي والتهميش السياسي. ثمّ البعد الخاص ببناء الثقة ــ وهو الأصعب في مرحلة الانتقال، ويشكل أحد أهم العوامل في عملية تشكيل مستقبل السودان.

هذا البعد الأخير يرتبط فيه بعدٌ نفسي تشكل بتراكمات تاريخية، وتعزز بسياسات استعمارية، الأمر الذي أضفى على المشكلة ــ أو علاقة الجنوب بالشمال ــ المزيد من التعقيد والتأزيم.

مجمل هذه التطورات والتراكمات التاريخية والنفسية للمسألة، جعلت العقل الجنوبي يستبطن موقفاً مسبقاً تجاه الشمال ــ هو موقف عقلي ووجداني يصل إلى درجة الإقتناع الجازم (Dogma) بأن الشمال يقوم على هوية مختلفة جداً عن الجنوب. هذا الموقف أصبح واضحاً على مستوى المقولات وعلى مستوى الممارسات. يقوم الموقف الجنوبي على فكرة استعلاء الشمالي على الجنوبي. وعلى الرغم من أن الإنتلجنسيا الجنوبية تعترف بأن مصدر هذا الاستعلاء هو العروبة والإسلام باعتبارهما يشكلان ثقافة راقية، إلا أنها ترى «أن الوجه الآخر للعُملة هو تحقير الجنوبي»[1].

إذاً تبدو المسألة أكبر من النظر إليها بسطحية سياسية باعتبارها مسألة موارد وظلم اقتصادي وتهميش سياسي، بل تتجاوز كلّ ذلك إلى تباين ثقافي واختلاف عرقي فصراع في الهويات. وبهذا المنظور الشامل تتعامل هذه الدراسة مع مسألة جنوب السودان، وترى الدراسة أن المدخل السوسيولوجي والمنهج المتكامل هو الأنسب للمعالجة العلمية، وأن أسلوب التحليل الاستقرائي الذي يستند إلى بعض المحاولات الإمبيريقية هو الذي يمكننا من النظر بموضوعية إلى مستقبل العلاقات بين الشمال والجنوب في السودان واستخلاص مؤشرات يمكن أن نحكم من خلالها على إمكانية تحقيق وحدة بين الطرفين.

لذلك تقوم هذه الدراسة على فرضية أساسية ترى أنه من الصعب تحقيق وحدة مستدامة بين الشمال والجنوب من خلال تلك الأطروحة التقليدية التي تختزل المسألة في اختلافات سياسية، يمكن حلها بإعادة توزيع السلطة، أو تظلمات اقتصادية يمكن حسمها من خلال معادلة جديدة لتوزيع الثروة، أو من خلال ترتيبات إدارية تقوم على الفيدرالية. من خلال استقراء أحداث كثيرة يستخدمها الباحث بصفتها مؤشرات تتكامل في نسق نظري، ومقولات ترجح عدم إمكانية تحقيق التكامل الوطني، أو بناء سلام مستدام، وبالتالي، وحدة مستقرة بين شمال السودان وجنوبه ما لم يتم ذلك وفق منظور سوسيولوجي شامل، واندماج اجتماعي حقيقي يمهد لانصهار بين القوميات في هوية كبرى واحدة تتعايش في داخلها عناصر التنوع الثقافي في انسجام تلقائي.

بهذا المنظور السوسيولوجي الشامل يتناول البحث هذه المسألة في ثلاثة مباحث هي: الإثنية في السودان، صراع الهويات باعتباره مهدداً للوحدة، ثمّ مستقبل السلام في السودان، وعوامل الوحدة.

(١) فرانسيس دينغ، **صراع الرؤى: نزاع الهويات في السودان**، ترجمة عوض حسن (القاهرة؛ الخرطوم: مركز الدراسات السودانية، ١٩٩٩).

أولاً: تأثير الهوية في العلاقات الجنوبية ـ الشمالية

لقد كان الاعتقاد السائد وسط علماء الأنثروبولوجيا أن السودان دولة أفريقية ـ عربية. وقد ظلّ هذا الاعتقاد يشكل إحدى المسلمات لدى أي باحث عند توصيفه السودان. وأضاف البعض كلمة إسلامي أو مسلم، فأصبح يُنظَر إلى السودان على أنه قطر عربي ـ أفريقي مسلم. غير أن هذا التوصيف الأخير غير مقبول لدى الجنوبيين في السودان الذين يرون أن كلمة «عربي ـ مسلم» هي شأن خاص بالشمال فقط. وحتّى بالنسبة إلى الشمال فإن الشماليين لديهم تحفظ، فحواه أن الشمال ليس كلّه مسلماً وليس كلّه عربياً، فهناك بعض المناطق في شمال السودان زنجية ومسيحية، مثل: قبائل النوبة في كردفان. كذلك هناك مجموعات كبيرة في الشمال اعتنقت الإسلام ولكنها ليست من أصول عربية مثل النوبيين في شمال السودان، والأنقسنا والفونج والفور، والزغاوة والمساليت والبرتي والتنجر والتامة والبرقو والبرنو والداجو والفلاتة وغيرها؛ ومعظمها تشير ملامحها إلى أصلها الأفريقي الصافي غير المختلط بالعرب. وقد قسمت الدراسات العلمية سكان السودان إلى مجموعات إثنية، كلّ منها تشكل نسبة محددة كما يبين في الجدول.

نسبة المجموعات العرقية إلى إجمالي السكان

المجموعـة العرقيـة	نسبتها إلى إجمالي السكان (في المئة)
العرب	٣٩
الجنوبيون	٣٠
مجموعة الغرب (الأفارقة)	١٣
النوبة (جنوب كردفان)	٦
البجا (شرق السودان)	٦
النوبيون (أقصى شمال السودان)	٣
مجموعات متنوعة أخرى وأجانب	٣
	١٠٠

المصدر: حيدر إبراهيم علي، «التعدد الإثني والديمقراطية في السودان،» ورقة قدمت إلى: ندوة «التعدد الإثني والديمقراطية في السودان»، الخرطوم، ١٨ ـ ١٩ أيار/مايو ٢٠٠٢، ص ١٤٠.

لكن قد يصدق القول، أيضاً، إن التنوع اللغوي أو الديني أو العرقي أو القومي قد لا يشكل في حدّ ذاته خطراً على الاستقرار السياسي للدولة المعنية، إنما تسييس التنوع هو الذي يؤدي إلى ذلك. وهذا هو الطابع السائد في معظم دول العالم الثالث، والسودان ليس استثناءً.

من ناحية الأديان نجد أن الأغلبية مسلمة (٧٣ في المئة)، وتشكل الأديان المحلية ١٧ في المئة، والمسيحيون ٨ في المئة. اللغة العربية يتحدث بها ٥١ في المئة من السكان، واللغات

النيلية يتحدث بها ١٧,٧ في المئة من السكان، و١١ في المئة يتحدثون لغة الدينكا. ويتحدث ٢١,١ في المئة بلغات غير العربية في الشمال[٢].

إضافة إلى التكوين الأنثروبولوجي فإن مسألة الهوية في السودان قد تعقدت بالتنوع الديني. وعلى الرغم من سماحة الإسلام المعتدل ــ الإسلام الشعبي الصوفي ــ السائد في السودان وقدرته على التعايش السلمي مع المسيحية، إلا أن عملية تسييس الدين، باعتماده أحد التباينات التي تميز هوية الشمال عن الجنوب، زاد من تعقيد المسألة السودانية. وقد اهتمت الحركة الشعبية لتحرير السودان، في أدبياتها، بالبعد الديني حيث كانت تنظر إلى النخبة السياسية الحاكمة في الخرطوم على أنها تقود حملة أيديولوجية جديدة.

يختزل الجنوبيون الهوية العربية الإسلامية في أقلية وافدة تمّ استيعابها في المجتمع السوداني التقليدي مع تمتعهم بمكانة متميزة واضحة. إن ذلك يمكن أن يُفسِّر وبوضوح حقيقة أنه بالرغم من التقدّم النشط في الاستعراب والأسلمة عند دخول الإسلام، إلا أن تلك المناطق ظلت في موقف حساس، بين تمسكها العاطفي بشخصيتها الأصلية بكبرياء، وتبنيها العملي للثقافة ووجهات النظر السياسية العربية»[٣]. ويرى فرانسيس دينغ مثلاً أنه حتّى المجموعات الشمالية التي كانت نتاجاً للاستعراب اكتسبت خصائص وسمات أفريقية بسبب تداخل الجنوب مع الأقاليم الشمالية، وعملية جلب الإماء (المسترقات) من الجنوب الذي تواصل من دون انقطاع قروناً، قدراً من التجانس المزيَّف غير الحقيقي بين كلّ أولئك النوبيين.

غير أن دينغ يعترف بتأثير الإسلام ودوره باعتباره عاملاً رئيسياً في تشكيل الهوية الحالية (لشمال السودان) وقد تفوق الإسلام على كلّ الحضارات التي سبقته. ضمت الإمبراطورية الإسلامية مصر أولاً، ثمّ أرسلت غزوات إلى السودان. وبالرغم من نجاح المقاومة السودانية في إيقاع خسائر عظيمة في العرب الغزاة إلَّا أنها في النهاية لم تتمكن من مقاومة القوة العربية الأكثر تقدّماً. بعدها سعى الطرفان (السودانيون والعرب المسلمون) إلى السلم، وعقدا اتفاقيات مع النوبيين (٦٥١ ــ ٦٥٢م) ثمّ مع البجا (٨٣١م). وتم عقد تلك الاتفاقية تحت ضغط القوة العسكرية المتقدمة للعرب ما حقق للعرب امتيازات على السودانيين[٤]. الملاحظ هنا أن فرانسيس دينغ يستخدم مفردة «العرب» للغزاة، و«السودانيين» للسكان الأصليين الذين هم أصلاً ليسوا بعرب بل «استعربوا» بفعل غزو العرب السودان ومصاهرتهم لهم.

ويستشهد الباحثون الجنوبيون بوقائع التاريخ ليستنبطوا منها مقولات محددة مثل

(٢) حيدر إبراهيم علي، «التعدد الإثني والديمقراطية في السودان،» ورقة قدمت إلى: ندوة «التعدد الإثني والديمقراطية في السودان»، الخرطوم، ١٨ ــ ١٩ أيار/مايو ٢٠٠٢، ص ١٤٠.

(٣) عبد الله علي إبراهيم، **الماركسية ومسألة اللغة في السودان** (الخرطوم: دار عزة للنشر، ٢٠٠١)، ص ٢٦

(٤) دينغ، **صراع الرؤى: نزاع الهويات في السودان**، ص ٤٤.

قولهم: إن السودانيين اعتنقوا الإسلام مكرهين بسبب ضعفهم أمام قوة عربية متفوقة عسكرياً، إضافة إلى مركزهم الاقتصادي المرموق بسبب سيطرتهم على التجارة. كما إنَّ عملية مصاهرتهم المستمرة عبر الزمن من الأسر المرموقة واستفادتهم من نظام التسلسل عبر الأم (Maternal) استمرت في تدعيم عملية الروابط المتبادلة لصالح الاستيعاب العربي ــ الإسلامي. وبمرور الزمن ورث الأبناء المنحدرون من العرب المهاجرين مركز الزعامة التي عن طريقها تبنوا فيما بعد التسلسل على النظام الأبوي (Paternal) ما أدى إلى استمرارية الهوية العربية ــ الإسلامية. ويرى هؤلاء الباحثون الجنوبيون أن «التحول كان، حقيقة، نتيجة استغلال القوة، وأن تحول السودانيين الأوائل إلى العروبة والإسلام كان، فقط، تكتيكياً لحماية النفس من جانب أناس وجدوا أنفسهم محاصرين بالقوة»[٥]. ويستغرب الباحثون الجنوبيون أن الشماليين يدَّعون نسبهم وارتباطهم بقبائل عربية مهيمنة في الحجاز (مثل قبيلة قريش) أو نسبهم إلى رسول الإسلام محمّد (ﷺ).

وفي سياق هذا التحول الجذري في الهوية المحلية، تطور الإسلام والعروبة بواسطة زعماء الصوفية الذين «كانوا انتقائيين في تعاملهم، ما أعطى العملية بعداً سودانياً مميزاً»[٦]. نقل الدعاة المسلمون الوافدون إلى السودان من مصر والحجاز والمغرب الطرق الصوفية في القرن الثاني عشر والثالث عشر. مع مطلع القرن الثامن عشر كانت هذه الطرق قد توطدت وبعمق في البلاد، محققة بذلك أكثر أنواع التغلغل الديني والنفوذ السياسي عمقاً وانتشاراً[٧]. وقد قامت الطرق الصوفية من أجل أن تواصل تعاليم الآباء المؤسسين أو الشيوخ. توسع نفوذ الطرق جزئياً، لأن طبقة التجار المتنامية رأت في الإسلام عاملاً يمكن استغلاله ضدّ النظام الإقطاعي التقليدي الذي كان يحد من نشاطها، كما توسعت الطرق الصوفية بسبب قبولها، وبسبب دعم السلاطين والملوك الذين تحولوا إلى الإسلام والطرق الصوفية بشكل واسع[٨].

وبمرور الزمن، اكتسب الصوفيون نفوذاً سياسياً عظيماً، بسبب أنهم كانوا يقومون بالتعليم، وأصبحوا الوسطاء بين الحكام والرعية. وبرز نظام اجتماعي جديد، وأصبح فيه الإلمام بالنصوص الدينية، والوعي الروحاني، الأساس لاكتساب الثروة والمكانة الاجتماعية.

---

(٥) Yusuf Fadle Hassan, *The Arabs and the Sudan: From the Seventh to the Early Sixteenth Century* (Edinburgh: Edinburgh University Press, [1967]), p. 90.

(٦) L. A. Binagi, «The Genesis of Modern Sudan,» (Ph. D. Dissertation, Temple University Press, USA, 1981),

نقلاً عن: Francis M. Deng, *War of Visions: Conflict of Identities in the Sudan* (Washington, DC: Brookings Institution, 1995), p. 46.

(٧) Tim Niblock, *Class and Power in Sudan: The Dynamics of Sudanese Politics, 1898-1985* (Albany, NY: State University of New York Press, 1987), pp. 161-162.

(٨) دينغ، **صراع الرؤى: نزاع الهويات في السودان**، ص ٤٦.

وبدأت الزعامة الصوفية الطائفية تلعب دوراً أساسياً في التطور السياسي في السودان، وفي التسييس الديني للهوية الوطنية[٩]. ولاعترافه بالنظام التقليدي والبناء عليه أصبح الإسلام مرتبطاً بالمجتمع المحلي وفقد بسرعة غربته باعتباره وافداً جديداً. لكن يرى فرانسيس دينغ أن من الخطأ القول بتجانس الشمال عربياً وإسلامياً لأن بعض المناطق تقبلت الاستعراب بدرجة أكبر من الأخريات، وكمثال، ظلّ الفور في أقصى الغرب، أكثر زنجية في الشكل والثقافة من الشماليين الآخرين[١٠]، بينما لم يتأثر النوبة في كردفان، إلا في ما ندر، وحتّى الذين تأثروا احتفظوا بثقافتهم السابقة للإسلام، بدرجة أعمق من الآخرين[١١]. كذلك انطوت هذه الهوية الإسلامية العربية (في الشمال) على تفاوت طبقي عرقي، ثقافي وديني، على الرغم من أنها (أي عملية الأسلمة والاستعراب) قامت على القيم القديمة وعلى نظام مؤسسات علاقات النسب.

تجاوز المهدي حدود الوطنية السودانية، وطرح فكرة الأمة الموحَّدة عن طريق حشد الدعم المعادي للأتراك. لكن الملاحظ أن المهدي كان معادياً لزعماء الطرق الصوفية. فقد عمل على «تقويض نفوذهم السياسي والديني دافعاً عملية توسيع الهوية في اتجاه الخط الإسلامي»[١٢]. هذا الاتجاه ــ الإصلاح الإسلامي ــ قاومته الختمية وأدى ذلك إلى ظهور انقسام جديد بين الطرق الصوفية.

لم تساعد الظروف، الدولة المهدية في أن تحقق أهدافها، فقد توفي المهدي بعد بضعة أشهر من انتصار ثورته بقتل شارلس غوردون الحاكم البريطاني ــ وبطل الحرب الصينية سابقاً ــ ثمّ الخلافات في ظلّ الخليفة عبد الله التعايشي بين أبناء الغرب وأبناء البحر (الأشراف) و«تدهور القانون والنظام وانتشارالمجاعة الناتجة من الجفاف والحرب وعدم مقدرة الدولة مجابهة الطوارئ»[١٣]، كلها عوامل حالت دون استكمال مشروع الهوية الإسلامية الكبير للمهدوية السودانية.

جاء الحكم الثنائي في عام ١٨٩٩ وهو بريطاني في جوهره، وهو علماني. لذلك وجدت الإدارة البريطانية المقاومة الدينية في شكل المهدية الجديدة (Neo-Mahdism) بينما ظلت دارفور مستقلة وتقاوم حتّى عام ١٩١٦م. ولإكتساب الشرعية، حاولت الإدارة البريطانية إظهار احترامها للقيم الدينية المحلية ومؤسساتها والاعتراف بالهوية الإسلامية للشمال، وقرر البريطانيون أن البلاد مسلمة وجعلوا الجمعة يوم عطلة رسمية بدلاً من الأحد.

---

(٩) Mansour Khalid, *The Government They Deserve: The Role of the Elite in Sudan's Political Evolution* (London; New York: Kegan Paul International, 1990), p. 4.

(١٠) دينغ، المصدر نفسه، ص ٤٩.

(١١) A. J. Arkell, «The History of Darfur, 1200-1700,» *Sudan Notes and Record,* vol. 32, (1951), p. 129

(١٢) R. C. Stevenson, «Some Aspects of Islam in the Nuba Mountains,» *Sudan Notes and Records,* vol. 44 (1963), pp. 9-20.

(١٣) Mohamed Omer Beshir, *Revolution and Nationalism in the Sudan* (New York: Barnes and Noble Books, 1974), p. 16.

وأُبعدت الجمعيات المسيحية عن الشمال، لكن سُمح لها لاحقاً بممارسة نشاطها بصورة محدودة في بعض مدن الشمال. وفي مجال التعليم التزمت السياسة البريطانية بالطرح الإسلامي، بعدم فصل الدين عن الدولة، وتم تدريس الدين بصفته جزءاً من المنهج في المدارس الحكومية. واستطاع البريطانيون عبر سياساتهم واستغلال السلطة أن ينجحوا نسبياً وجزئياً في إعادة صياغة توجهات السودانيين نحو أنظمة حديثة من دون إبعادهم عن هويتهم العربية الإسلامية ما جعلهم أكثر مرونة وتقبلاً للاختلاف، وباحترامهم الإسلام تمكّن البريطانيون من التأثير التدريجي في السودانيين لتقبل فصل الدين عن الدولة[١٤].

عندما أدرك البريطانيون صعود المد الوطني العلماني وسط الشباب المتعلم الذين تأثروا، أولاً، بالاشتراكيين الفابيين للعمل من أجل نموذج سياسي واقتصادي تقدّمي، ثمّ تحولهم بشكل واضح نحو القوميين المصريين للتوجيه الاستراتيجي والتعاون، حينها قرر البريطانيون التوجه نحو قادة الطائفية، وبخاصة إلى أنصار المهدي المعادين للمصريين، ليصبحوا حلفاء سياسيين لهم. وعبر تخصيص الأراضي والسلفات الضخمة لتكون رأسمال استثماري، حازت عائلة المهدي على قاعدة اقتصادية هائلة. وتغير وضع السيد عبد الرحمن المهدي بشكل مذهل، وبسبب العداء التقليدي بين عائلة المهدي والمصريين، أصبح عبد الرحمن أقرب للبريطانيين.

يرى فرانسيس دينغ أن التمازج والوحدة في الشمال ناتج بدرجة كبيرة، فقط، بسبب المجابهة مع الجنوب. كما إنَّ الجنوب على النقيض من الشمال ظلّ أكثر المناطق عزلة في أفريقيا؛ فالحدود بين الشمال والجنوب تحصنت نتيجة تاريخ مرير من العداوات والاحتقار المتبادل. وبينما تمّ تخفيف وكسر حدة العداء بتدخل الاستعمار البريطاني، إلا أنه وبطريقة ما تعمق وتشذب وتواصل حتّى داخل الإطار الحالي لبناء الأمة[١٥].

استبطن البريطانيون والأوروبيون الذين عملوا في إدارتهم نزعة عنصرية في تعاملهم مع الجنوبيين حيث تحدثوا عنهم بوصفهم زنوجاً لا يستحقون المعاملة الإنسانية[١٦]. وقد لعبت الإدارة البريطانية أدواراً سالبة، منها إحياؤها القصدي للعصبيات القبلية في مواجهة خصومها السياسيين، مثلما حدث في سياساتها تجاه القوى الحديثة بعد حركة ١٩٢٤. ومثلما حدث في محاربتها المهدية الجديدة وقائدها. إذ كان التحول لدعم الإدارات الأهلية في جوهره موجهاً ضدّ هذه الحركة. فقد نظرت الإدارة

(١٤) P. M. Holt, *The Mahdist State in the Sudan, 1881-1898* (Oxford: Clarendon Press, 1958), and Muddathir Abd al-Rahim, *Imperialism and Nationalism in the Sudan: A Study in Constitutional and Political Development, 1899-1956*, Oxford Studies in African Affairs (Oxford: Clarendon Press, 1969).

(١٥) J. Spencer Trimingham, *The Christian Approach to Islam in the Sudan* (London; New York: Oxford University Press, 1948), p. 25.

(١٦) دينغ، **صراع الرؤى: نزاع الهويات في السودان**، ص ٥٩.

البريطانية لحركة ١٩٢٤ باعتبارها حركة للمنبتين قبلياً (Detribalized) فحاولت إحياء القبلية، وحاربت كلّ ما من شأنه تفتيت الرابطة القبلية[١٧]. ومن هنا جاءت نظرتها للمهدية بوصفها حركة للمنبتين قبلياً. كذلك أقام الاستعمار منطقة عازلة على طول بحر العرب لمنع تداخل عربان دارفور وكردفان مع أهل الجنوب وأزيحت قبيلة الباندا دنقو ذات الاختلاط بأولئك العربان إلى مناطق في أعماق الجنوب، وأزيلت مدينة كافيكانجا التجارية الإدارية من الوجود لكونها نقطة التقاء للجنوبيين والشماليين. وقد سُوِّيت منازلها بالأرض حتّى لا يقطنها جنوبي[١٨].

أما الأنظمة الوطنية التالية للإدارة البريطانية فقد تأخرت في اكتشاف المظالم الثقافية والتنموية التي تسببت فيها السياسات المذكورة، وفي مسألة المشاركة العادلة في السلطة والثروة. فقيام السودنة على أسس الكفاءة المحضة كان خطأً فادحاً، وتبني ثقافة مركزية واحدة مهيمنة من دون النظر إلى الثقافات الأخرى والسير في السياسة الاقتصادية على خطى الإدارة البريطانية بمعايير الجدوى الاقتصادية من دون النظر إلى الأبعاد الاجتماعية وإلى مصالح المناطق المهمشة، كلها أخطاء تدفع البلاد ثمنها اليوم[١٩].

وفي جبال النوبة، مثلاً، أعادت الحكومة تقسيم الإدارات الأهلية بغرض الكسب السياسي، أو إضعاف الخصوم، ما انعكس سلباً على التعايش. ففي منطقة جبال النوبة حلت الهوية العرقية ــ في التقسيم الجديد ــ محل الهوية الإقليمية التي كانت سائدة في الماضي والتي كانت تستوعب الهويات العرقية على تعددها. كذلك في الأنظمة العسكرية، عند حظر الأحزاب أصبح الرجوع للقبيلة هو السبيل الوحيد المتاح للتعبير سياسياً. كما إنَّ انهيار الخدمات وتخلي الدولة عن دورها الاجتماعي والخدمي أيضاً ساهم في رجوع المواطنين للقبيلة باعتبارها مؤسسة ضمان اجتماعي.

على الرغم من النجاح النسبي لمؤسسات ونظم الحكم الاستعماري في تيسير التواصل بين أجزاء السودان وقومياته وخلق شعور عام بالانتماء لكيان واحد، فقد ظلت المؤسسات والنظم قاصرة عن تحقيق البناء القومي المطلوب. إن هذه الخلفية التاريخية تنتهي بنا إلى أن السودان غداة الاستقلال كان كياناً قابلاً للتطور في أي الاتجاهين: أما التكامل القومي والوحدة، أو التناقض والانقسام حسب المدخلات السياسية، الثقافية والاقتصادية. فالتفاعل التاريخي إلى ذلك الوقت أوجد أرضية معقولة كان يمكن أن يُؤسس عليها البناء القومي

(١٧) G. Ayoub Balamoan, *Peoples and Economics in the Sudan, 1884 to 1956*, edited by J. B. Wyon, History of Human Tragedies of the Nile, 1884-1984, 1st pt. rev. and extended (Cambridge, MA: Harvard University Center for Population Studies, 1981).

(١٨) يوشيكو كوريتا، **علي عبد اللطيف وثورة ١٩٢٤**، ترجمة مجدي النعيم (الخرطوم: مركز الدراسات السودانية، [د. ت.])، ص ٥٠.

(١٩) إبراهيم، **الماركسية ومسألة اللغة في السودان**، ص ٢٦.

السليم، ولكنه مع ذلك كان قاصراً عن القضاء على التباينات الإثنية والثقافية، الدينية والاقتصادية التي يمكن أن تغذي الصراع والانقسام[٢٠].

إن الفوارق الإثنية في الحالة السودانية تحمل في ثناياها الفوارق الثقافية، الدينية والاقتصادية. فالعناصر الزنجية غير العربية هي التي يتركز فيها الوجود غير الإسلامي مسيحياً كان أو وثنياً. كما إنَّ هذه العناصر تحتل في غالبها هامش الحياة الاقتصادية، وهي كذلك ضحية التراتب الاجتماعي الذي أفرزته الظروف التاريخية بما في ذلك حركة الرق[٢١].

هذا يعني أن الإثنية في السودان تحمل في ثناياها الاختلافات الدينية والثقافية والاقتصادية. هذا إضافة إلى التعقيدات التاريخية التي اكتنفت العلاقات بين الإثنيات، وبخاصة في عصر الاسترقاق، ما جعل التناقض الإثني تناقضاً مزدوجاً يحمل في أحشائه أبعاداً كثيرة. وقد أفرز هذا الواقع أوضاعاً ومفاهيم جديدة مثل: «الاستعلاء الإثني»، و«الطبقية العرقية» وما ارتبط بهما من تهميش وحرمان تنموي. كما إنَّ هذا الاستقطاب الإثني الثقافي الديني أفرز وعياً لدى قطاعات واسعة بحقيقة السودان التي حجبها الخطاب السياسي الثقافي العروبي ــ الإسلاموي.

ثانياً: صراع الهويات في السودان: منظور سوسيولوجي

١ ــ مدخل ديني

إن الفهم الصحيح للتوليفة التي يتكون منها النسيج الاجتماعي السوداني الراهن عند النظر إلى علاقة الشمال والجنوب ينبغي أن ينطلق من دراسة الصورة الذهنية التي يحملها الجنوبي عن الشمال: كيف تفسر النخبة الجنوبية طبيعة الصراع بين الشمال والجنوب؟ وصفت نخبة الجنوب هذا الصراع بأنه حرب بين جنوب مسيحي ــ أفريقي وشمال مسلم ــ عربي. وقد نتج من ذلك الصراع خسائر في الأرواح واضطرابات اجتماعية وآثار نفسيةً سيئة مهدت لتغلغل المسيحية ــ باعتبارها إحدى آليات الخلاص بالنسبة للجنوبي. «فقد شهد السودان في العقود الأخيرة أكبر عملية اعتناق للمسيحية»[٢٢]. ويقول هؤلاء الصفوة إن انتشار الكنيسة في السودان يُعَد الأكبر والأسرع في أفريقيا قاطبة. ويشمل ذلك كلّ الجنوب ومنطقة جبال النوبة؛ وأنه حتّى الجنوبيون الذين نزحوا إلى الشمال شكلوا مجتمعات مسيحية (Christian Communities) ذات طابع خاص في الشمال.

---

(٢٠) حامد البشير ابراهيم، **محاولة لفهم العلاقات القبلية وديناميات الحرب والسلام في جبال النوبة**، ترجمة عائشة سليمان، ص ١٦٥

(٢١) مكي علي بلايل، «الديمقراطية والإثنية في السودان،» ورقة قدمت إلى: ندوة «التعدد الإثني والديمقراطية في السودان»، ص ٩.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٠.

ويضفي الجنوبيون على هذا التحول (Conversion) إلى المسيحية بعداً سياسياً حيث يرون أن السياسات «التعسفية والإقصائية» التي تتسم بالتشدد والتطرف والتي انتهجتها حكومة الجبهة الإسلامية القومية هي التي دفعت بالجنوبيين إلى اعتناق المسيحية. ويأتي ذلك على أساس عاطفي حيث شكل الدين المسيحي الملجأ والملاذ والخلاص وتجسد في تعويذة دينية: «إن الله لم ينسنا» (God Has not Forgotten Us). هذا التفسير للدين بوصفه محركاً أساسياً وعنصراً ديناميكياً في فضاء الهوية السودانية ينطوي على إعادة تقسيم جوهري لتراث القوميات والهوية في سياق لاهوتي، روحي، وأخلاقي[٢٣]. وتعتقد النخبة الجنوبية أن تآكل البنية الاجتماعية والأخلاقية للمجتمعات المحلية أتاح للكنيسة فرصة أن تؤدي دوراً قيادياً روحياً في كلّ المجتمع المدني والحكومة المحلية في الجنوب. لذلك تبلورت الهوية في الجنوب على أساس ديني.

هذا التفسير يجب أن نأخذه في الاعتبار في سياق تعزيز التباينات الأخرى التي كانت أصلاً قائمة بين الشمال والجنوب مثل، العرقية والثقافة ما يعني أن الخط الفاصل بين الطرفين أصبح أكثر حدة ووضوحاً. هذا التحول لم يكن على مستوى المؤسسات في الجنوب بل في مستوى الأفراد وحركة المجتمع من القاعدة (Grass Roots Movement)[٢٤]. هذا في إشارة إلى عمق التحول وشموليته والحيوية العالية التي اتسم بها (Dynamism). وهذا أيضاً يعزز البُعد النفسي في تشكيل الهوية الجنوبية؛ لأن اعتناق مجموعات وثنية ولا دينية في الجنوب المسيحية جاء بدافع الخلاص والملاذ. وإذا كانت اللغة السائدة من خلال النشاط التبشيري هي الإنكليزية، مقرونة بعادات وتقاليد محلية متخلفة ومقرونة بأنثروبولوجيا وتراث وتاريخ مختلف، كلها تشكل عوامل لبلورة أركان هوية مختلفة عن هوية الشمال ــ على الرغم من التعدد في داخل الشمال، وكذلك التعدد في داخل الجنوب من النواحي الإثنوغرافية والثقافية. فالتعدد الثقافي (Multiculturalism) هو سمة القوميات السودانية، غير أن الهوية بصورة عامة في جنوب أفريقي غير مسلم وغير عربي ــ حيث لا يستطيع أحد أن يجزم بمسيحيته الكاملة؛ وشمال أغلبه مسلم، وفي غالبه مستعرب. لذلك فإن عوامل الانسجام متوافرة (نسبياً) بين قبائل الجنوب النيلية، مثلما هي متوافرة (أيضاً نسبياً) بين قبائل الشمال العربية ــ الأفريقية المسلمة.

كذلك ترى النخبة الجنوبية أن المسيحية التي كان يُنظَر إليها باعتبارها «صنيعة استعمارية أوروبية أصبحت الآن في السودان ظاهرة محلية عميقة، ضاربة الجذور في لغات وثقافات الشعب السوداني[٢٥]. هنا نلاحظ التعميم في عبارة «الشعب السوداني». ويرون أنه

(٢٣) Marc Nickel, «God Has Not Forgotten Us: Christian Identities and Ethnic Survival in Sudan,» paper presented at: Religion, Nationalism and Peace in Sudan, organized by the United States Institute of Peace (USIP), 16-17 September 1997.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٣.

مع نهاية الحكم الثنائي ظهرت المسيحية قوة موحِّدة (Unifying Force) وسط النخبة الأقلية من الأفراد المتعلمين في المدارس الإرسالية لكن اليوم «انتشرت المسيحية ليس وسط النخبة المتعلمة، فقط، بل وسط المتعلمين الجدد، النازحين، والمتأثرين بالحرب في الريف والمدن. إن الهوية المسيحية يتم التعبير عنها اليوم بعدة طرق وسط هذه الجماعات»[٢٦]. ويعترض هؤلاء على اعتبار المسيحية مجرد طارئ أجنبي: «إن ديناميكية وحيوية انتشار الكنيسة أمر واقع يجب أن يعترف به الجميع. وإزاء ما حققته الكنيسة من تكامل وتمازج ثقافي (Cultural Intermingling) والقوة العددية والمغزى الاجتماعي، فإن عملية تهميش الكنيسة يصبح أمراً مدمراً»[٢٧].

يذهب هؤلاء إلى أن تجاهل المشاعر الدينية لغير المسلمين إنما يكون على حساب تماسك الدولة. كما يعتقدون أن الجماعات السودانية التي تعرضت مرتكزاتها الثقافية للتدمير بسبب الحرب والتي نتج منها إبادة جماعية واسترقاق (Enslavement)، قد وجدت الخلاص في المسيحية. لذلك فإن عملية اعتناق المسيحية هنا لا تخضع لتفسير سوسيولوجي وسياسي بل لتفسير ثيولوجي (لاهوتي ــ ديني)، ومعنوي لإدراك أ ن هناك «هوية» تشكلت بقوة (Solidified) بسبب المعاناة. كما إنَّ الكنيسة قدمت نماذج وأُطراً بديلة للانهيار الثقافي حيث يجد الإنسان نفسه في كيان جديد ينتمي إليه يحقق له التجدد الاجتماعي[٢٨].

إذاً، أصبحت الهوية الجنوبية تتركز في البعد الأفريقي والدين المسيحي. والملاحظ أن الأنثروبولوجيين يصنفون السودان باعتباره جزءاً من التركيبة الأفريقية، بوصفه كياناً يضم ثلاثاً من أربع سلالات رئيسة تشكل سكان أفريقيا هي: الزنوج، البوشمين والقوقاز (Caucasian). وأن اللغات الأفريقية تصنف على هذا الخط؛ حيث تضم مجموعة اللغات الرئيسة الأفروآسيوية والنيلية الصحراوية، والنيجر ــ كردفانية، وخويسان (Khoisan)[٢٩] وكلها ــ عدا هذه الأخيرة ــ ممثلة في السودان. كذلك من ناحية لغوية يقع السودان في حزام التعدد اللغوي الكبير الذي يمتد من السنغال في غرب أفريقيا إلى إثيوبيا في الشرق. تعزَّز هذا التنوع العرقي ــ اللغوي بتنوع ثقافي واختلافات أخرى وبخاصة اللغة التي تُعتبر أهم بارومیتر في مسألة الهوية[٣٠].

كما أشارت هذه الدراسة سابقاً إلى أن العرب ليسوا السكان الأصليين في السودان،

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٢٩) Sayyid Hamid Hurriez, «Ethnic Culture and National Identity in the Sudan,» in: *Ethnicity, Conflict and National Integration in the Sudan* (Khartoum: Khartoum University, Institute of African and Asian Studies, 1989), p. 77.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٨١.

وكذلك اللغة العربية ــ مع أن الثقافة الإسلامية ــ العربية اكتسبت السيادة في ما بعد. وهذا يرجع إلى العصر الذي عاشت فيه ثلاث ممالك مسيحية في وادي النيل. تغذى سكان السودان بنفوذ ديني ولغوي واجتماعي سياسي متنوع من النوبيين، شمال أفريقيا والبحر المتوسط وشمال شرق أفريقيا وغرب آسيا. جاء أثر المسيحية القبطية واليهودية من مصر وإثيوبيا ودول البحر المتوسط. جاء التأثير اليوناني الروماني واللغة والثقافة السامية من إثيوبيا الأكسومية، وشبه الجزيرة العربية، تسربت لغات روما واليونان إلى الممالك السودانية المسيحية وتفاعلت مع الثقافات المحلية، انتشرت عبر الزمان. والمكان. وأخيراً ساهمت في تشكيل هذا النسيج الإثني المعقد[٣١].

استند المثقفون الجنوبيون إلى هذه الحقائق التاريخية في اعتقادهم بأن العرب «أقلية دخيلة». وأن السودان أصله أفريقي وليس عربياً. لكن الحقائق التاريخية التي استندوا إليها لم تكن ثابتة. بل كانت نسبية وتحرّكت تلك الحقائق عبر العصور. فكان الحراك الاجتماعي والتفاعل الثقافي والتداخل اللغوي والتواصل عبر السلالات المختلفة وتزاوجها عبر حزام بلاد السودان قد أعاد تشكيل السودان وغير البنية الاجتماعية والمنظومة الثقافية، على الأقل، في السودان الشمالي، بينما استمرت تلك الحقائق التاريخية ثابتة في الجنوب بسبب الظروف الطبيعية، ثمّ ــ في ما بعد ــ بسبب السياسات الاستعمارية. فليس من المنطق الآن أن يتحدث أي باحث عن واقع تاريخي لم يَعُد له وجود. أو يدعي ملكية هذه المنطقة لمَن لم يعد لهم وجود بعد أن ظهرت أجيال جديدة بفعل التزاوج، بل تغيرت ملامح بعضهم عن الأجداد، وبعضهم تعدلت سحناتهم بفعل هذا التزاوج (Intermarriage)، وتغيرت هويتهم ــ مثلاً: من هوية أفريقية بحتة إلى عربية إسلامية ــ في معظم شمال السودان.

هذه التغيرات التي تمت عبر التاريخ الطويل، وبخاصة في عصر الممالك والسلطنات الإسلامية، أنتجت نوعاً جديداً من السودانيين لهم هويتهم الدينية والإثنية والثقافية. هم الآن «أفارقة مسلمون. تمثَّلوا الإسلام لكن ليس العروبة. فهم ينتمون ثقافياً (دينياً ولغوياً) للمسلمين المستعربين في الجوار ــ في الشمال والشرق، وعرقياً ينتمون إلى الجيران الأفارقة غير المستعربين في الجنوب»[٣٢].

إذاً إن تغلغل واستيعاب المسلمين العرب في السودان نتج منه ــ إضافة إلى أشياء أخرى ــ تغيرات ثقافية كبيرة وبخاصة في اللغة والدين. لذلك يصحّ الافتراض أن السودان إذا لم يكن فيه هذا التفوق العربي (على اللغات والثقافات الأخرى) فإن هذه الدولة ربما صارت دولة ذات تعدد لغوي (Multi-lingual) وربما توحدت فقط بلغة المستعمر (اللغة الإنكليزية) ــ مثلها مثل أي مستعمرة بريطانية أخرى (نيجيريا، الهند).

وعلى الرغم من ظروف الهجرات والحراك الاجتماعي والتفاعل بين إثنيات مختلفة

(٣١) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٨٠ ــ ٨١.

إلا أن ذلك لم يؤد إلى قطيعة ثقافية تؤثر بصورة جذرية في المجرى الرئيس (Mainstream) لهوية السودان الشمالي. ويعزو الباحثون عملية التواصل الثقافي (Cultural Continuity) إلى اللغة العربية باعتبارها لغة جامعة (Lingua Franca) والثقافة الإسلامية الرابطة بين الإثنيات، إضافة إلى التفاعل الاجتماعي والديني في إطار التعايش والتسامح المتبادل. وبذلك استطاع التواصل الثقافي أن يحفظ استدامة الهوية المشتركة. هذا التداخل (Interplay) بين هذه المجموعات العرقية المتعددة أعطت السودان خصوصية وصفة بوتقة الانصهار (Melting Pot). لكن بوتقة الانصهار هذه تعني أن النظام الاجتماعي الثقافي السوداني هو «مزيج فريد لمجموعات متعددة الأعراق تشكل بناءه»[٣٣]. غير أن هذا يعتمد على أي مدى نستطيع تنشيط عوامل الوحدة ــ مثل اللغة ــ لتساهم في عملية إيجاد التجانس (أو الهرمنة). مثل هذه العملية لا تتحقق ــ على نطاق السودان ــ إلا في المدى البعيد لأنها تحتاج إلى درجة عالية من عملية التمثل (Assimilation) لاستيعاب الجماعات المختلفة أو/و المهمشة في الثقافة السودانية الكلية. في ما يخص الشمال فقد حدث حراك اجتماعي مكثّف ريفي ــ حضري قللَّ من هذا التمايز الحاد[٣٤]. لكن هذا يصدق أو ينطبق على الشمال فقط. أما في ما يخص الشمال مقابل الجنوب فمازال هذا التمايز حاداً جداً ويظهر دائماً على السطح كلّما تعرضت العلاقات بين جزءي الوطن إلى اختبار حقيقي مثلما وقع من أحداث دامية بين الطرفين في عامي ١٩٦٤ و٢٠٠٥.

باستقراء التاريخ نجد أن عملية التواصل الثقافي التي ساعدت على تماسك الجماعات السودانية في الماضي قد تعززت أيضاً بعدة عوامل أخرى في إطار السودان الحديث مثل: الإسلام الذي تمثل في المهدية ثمّ المهدية الجديدة[٣٥]، وبالاستعمار الذي شكل عدواً مشتركاً وحَّد كلّ الجماعات في السودان. كما إنَّ الإدارة المركزية التي أسستها القوى الاستعمارية قد عززت الوحدة الوطنية. هذا يفسر لماذا اندلعت المشكلات الإثنية بعد الاستقلال. السبب هو أن الجنوب لم يتم استيعابه، أو لم يتمثَّل الثقافة الأم أو المركزية (Core Culture). فقد بقي الجنوب محافظاً على تمايزه في اللغة والعادات والدين وشكل تحدياً لأطروحة «بوتقة الانصهار». ولذلك تنطبق هذه الأطروحة على الشمال فقط. يعتقد الباحثون أن عملية الانصهار تمت بنجاح في الشمال حيث «ذابت بعض المجموعات أو الثقافات في الثقافة الكلية»[٣٦] وبما أن هذه الجماعات المستوعَبة في الثقافة الرسمية قد شكلت ثقافاتها الفرعية إضافةً وإثراءً للثقافة الكلية، فإن ذلك يشكل دعماً إمبيريقياً لأطروحة بوتقة الانصهار ــ لكن في الشمال فقط.

إذاً، في السودان أخذ التغلغل العربي بعداً سلطوياً حاملاً قيماً ومعتقدات سادت على

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٣٤) Al-Fatiha Abdul-Salam, «Ethnic Politics in the Sudan,» in: Ibid., p. 33.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٣٩.

حساب الآخر. وتميز الوجود العربي بقوة الدفع التي تتمثل في النسق الحضاري المتكامل من لغة ودين وثقافة في اتساق مكنها من التجانس والقوة لتربط فسيفساء عالية التنوع. هذا التنوع الكثيف في الهويات (Multiplicity of Identities) تمازج في السودان عبر فترة زمنية طويلة فكان النتاج حالة فريدة من مركب الهويات والإثنيات (Ethnic Multiplicity) وضعت الدولة السودانية على مفترق الطرق: إما أن يتم نسجه إيجابياً من خلال عملية اندماج اجتماعي في بوتقة انصهار، وإلا فإن هذا التنوع الكبير في العرقيات والهويات والدين سوف يضعف الدولة ويهدد التماسك الوطني.

٢ ـ مدخل سوسيولوجي

يرى الباحث أن جذور المشكلة الحقيقية للمسألة الجنوبية ترجع في الأساس إلى الخلفيات الأنثروبولوجية التي تشكلت منها الدولة السودانية. إن التنوع في الهوية السودانية هو نتاج لعملية طويلة من التنشئة والتثاقف (Socialization and Acculturation) تطورت عبر تكيُّف تاريخي وسياسي واقتصادي واجتماعي[٣٧] الملاحظ أن هذا النسيج الاجتماعي ـ الثقافي للسودان نتج عن تعايش سلمي وتسامح ديني بين العرب المسلمين والمجموعات السودانية المحلية. شكلت هذه العملية الأساس والإطار الاجتماعي للثقافة السودانية والهوية لأنها «مكنت الجماعات المختلفة من الاختلاط والاندماج برغبة، فكونت جماعات أكبر (Wider Grouping)»[٣٨].

إن الهوية نفسها تقوم على عدة مكونات من أهمها الثقافة. والثقافة السودانية يمكن تتبُّع منابعها من العصور القديمة. هذه الثقافة السودانية (Sudanic Culture) ظهرت في الوجود في المنطقة بين أسوان والخرطوم. هذه المنطقة شكلت قلب الحضارة السودانية. وهي أيضاً مهد الحضارة الإنسانية. في هذه المنطقة تفاعلت الحضارة النوبية مع الحضارة المصرية منذ عهد النبي إبراهيم عليه السلام[٣٩]. قبل الهجرة العربية إلى السودان النيلي كان يسكن هذه المنطقة حاميون في الشمال وقبائل زنجية في الجنوب. أي أن المفاصلة كانت تاريخية وأنثروبولوجية. دخلت القبائل الرعوية هذه البلاد عبر القرون وتزاوجت بالجماعات السودانية الأصلية أو المحلية (Indigenous). هذه الجماعات (القبائل) المختلفة اعتنق معظم أعضائها الإسلام وتمثلت الثقافة العربية، وكذلك العادات واللغة العربية. إذاً، شهدت المنطقة تفاعلاً إثنياً بين العرب والحاميين والزنوج. صاحب ذلك تفاعل ثقافي بين الإسلام والمسيحية والوثنية[٤٠].

---

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) Abdu Mukhtar Musa, «The Impact of the State on the Press,» (Unpublished Ph. D. Dissertation, University of Khartoum, 2004).

(٣٩) Abdul-Salam, Ibid., p. 77, and Hurriez, «Ethnic Culture and National Identity in the Sudan».

(٤٠) حسن مكي، «الشخصية السودانية بين ضغوط الحداثة ومشاريع التجديد،» **دراسات أفريقية** (الخرطوم)، العدد ٣١ (حزيران/يونيو ١٩٩٥)، ص ١٣.

اندلعت صراعات دينية بين تلك الجماعات فيما بعد. مثلاً: في القرن السادس عشر وقعت القبائل العربية التي كان شيخها عبد الله جماع شيخ العبدلاب اتفاقية مع الفونج في الجزيرة وسنار. هذا الحلف هاجم دويلات سوبا المسيحية وقضى عليها[٤١] وهذا أتاح الفرصة للعرب البدو الرحل للدخول إلى المنطقة عبر وادي النيل واستقروا في منطقة البطانة، بعضهم عبَر النيل إلى كردفان ودارفور. وفي عصر مملكة الفونج (١٥٠٤ ــ ١٨٢٠م) قاد زعماء الطرق الصوفية أكبر عملية أسلمة في السودان ساعدهم على ذلك تشجيع ملوك الفونج والعبدلاب. وقد جاء رجال الطرق الصوفية من مصر، والحجاز، واليمن، وفي ما بعد من المغرب. دولة الفونج المؤسلمة أعطت للدولة درجة من الوحدة والاستقرار السياسي ومهدت الطريق لعملية أسلمة متسقة ومستمرة[٤٢]. وقد قاد عملية الأسلمة ــ بجهد فردي ــ العلماء الذين نشروا التعليم الإسلامي والصوفية. هذه العملية وجدت المزيد من الدعم والدفع من التجار وحركة القبائل الرعوية.

أما فترة الحكم التركي ــ المصري فهي كانت بداية عملية التحديث في بلاد السودان الشرقي (جمهورية السودان الحالية) حيث شكلت النخبة التركية الحاكمة أداة استعمارية ليس في السودان فحسب، بل في كلّ أنحاء العالم الإسلامي. غير أن هذه المرحلة المبكرة لعملية التحديث انطوت على نشر الأسلوب الغربي، لكن من دون محتوىً روحي. وهي الظاهرة التي وصفها علي المزروعي في محاضرة له في الخرطوم في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ بأنها تغريب وليست تحديثاً (Westernization not Modernization). سعت عملية التحديث ــ أو التغريب تلك ــ «لإدماج السودان في نمط الحداثة الأوروبية (European Modernity) وفتحت الباب لتجارة الرقيق والتبشير المسيحي والحكم الأجنبي»[٤٣].

يرى بعض الباحثين أن عملية التحديث أعاقتها الثورة المهدية ــ مع افتراض الاستخدام المجازي هنا للتحديث بدلاً عن التغريب ــ حيث حاولت الثورة المهدية استعادة استمرارية إحياء البعد الإسلامي في تركيبة الهوية الثقافية للدولة. وقد فشل الاستعمار البريطاني في وقف تيار الثقافة العربية ــ الإسلامية في السودان. لكن نجح البريطانيون في منع هذا التيار من التغلغل في الجزء الجنوبي من السودان، وذلك بانتهاج سياسة المناطق المقفولة (Closed Districts).

وهكذا تشكل شطران في السودان: الشمال عربي (أو مستعرب) مسلم، والجنوب زنجي مسيحي؛ حيث عملت الإدارة البريطانية على تشجيع التبشير المسيحي. بل في مرحلة ما من

(٤١) Yusuf Fadl Hassan, «External Islamic Influence and the Progress of Islamization in the Eastern Sudan between the Fifteenth and the Nineteenth Centuries,» paper presented at: *Sudan in Africa: Studies Presented to the First International Conference Sponsored by the Sudan Research Unit, 7-12 February, 1968*, edited with an introduction by Yusuf Fadl Hasan, Sudan Library Series; 2, 2nd ed. (Khartoum: Khartoum University Press, 1985), p. 75.

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) المصدر نفسه.

النفوذ الأجنبي تقاسمت الجنوب ثلاث قوى غربية للتبشير المسيحي هي: الإرسالية الأمريكية التي كانت منطقة نفوذها في أعالي النيل، والإرسالية البريطانية في الاستوائية، والإرسالية الإيطالية في إقليم بحر الغزال. وحتّى اليوم تتحدث النخبة الجنوبية عن هويات مسيحية (Christian Identities) باعتبارها الركيزة الأساسية للهوية الجنوبية مقابل الهوية الإسلامية في الشمال. هذا التمييز ليس جغرافياً؛ فالهوية الجنوبية (الأفريقية) المسيحية توجد في الشمال أينما نزح ــ أو وُجِد ــ الجنوبي. فهي ذاتية ثقافية لا يغيرها وجود الجنوبي في شمال السودان. الملاحظ أن الجنوبيين قد كسبوا كثيراً من الترويج لهذا البعد كأساس للصراع بين الشمال والجنوب (كما أشرنا في ذلك في المبحث السابق). وقد تعمق ذلك الفهم عند الجيل الحالي حيث تناقلت أجيالهم تلك الصورة الذهنية القديمة التي تصور الشمالي بأنه مصدر الغزو والاسترقاق. وقد استفادت النخبة الجنوبية من إعلام العولمة حيث بثوا أدبياتهم في الفضائيات وشبكة الإنترنيت لاستمالة الرأي العام العالمي واستدرار العطف الدولي. فلقد تكثف نشاط الجنوبيين مؤخراً في هذا الاتجاه على المستويين الإقليمي والدولي. ففي الفترة ما بين ١٩ ــ ٢٨ تموز/يوليو ٢٠٠٠م أقيمت في تنزانيا الدورة (١٤) لاتّحاد أساقفة شرق أفريقيا الكاثوليك وكان من بين أجندة المؤتمر:

أ ــ الأوضاع في السودان.

ب ــ خطّة التنصير في الإقليم في الألفية الثالثة (تحدي الاتّحاد)

تناول المؤتمر في البند **الأول** الأوضاع في السودان وأدان المؤتمرون حكومة السودان وكرروا ما ذكروه في مؤتمرهم السابق في نيروبي (آب/أغسطس ١٩٩٩) من انتهاكات لحقوق الإنسان. اتفق المؤتمرون على استراتيجيات وطرق ومناهج حديثة للأداء التنصيري في الإقليم (إقليم شرق أفريقيا الذي يضم جنوب السودان). وقد وجه المؤتمرون نداءً إلى سكان أسقفياتهم للقيام بمسؤولياتهم التنصيرية المقدسة والعمل على تنصير المجتمع. وإدخال المزيد إلى النصرانية[٤٤]. ثمّ انتقل النشاط التبشيري الإقليمي إلى مرحلة التدويل حيث تمّ عقد المؤتمر القومي للأساقفة الكاثوليك مؤتمره العام في واشنطن في ١٥/١١/ ٢٠٠٠ وقد جاء داعماً لتوجهات الاتّحاد الإقليمي للأساقفة، فوضع قضية السودان في قمة اهتماماته وأدان انتهاكات حقوق الإنسان في الجنوب.

وبمثل ما أصبح جنوب السودان مشدوداً للأفريقانية والدين المسيحي كذلك يتماسك الشمال بالدين الإسلامي والثقافة العربية. وإذا نظرنا إلى السودان من الناحية الأنثروبولوجية نجد أنه يضم ٥٦ مجموعة قبلية كبيرة تشمل أكثر من خمسمئة قبيلة تتحدث أكثر من مئة لغة. لكن اللغة العربية يتحدث فيها أغلبية السكان. ويدين ٧٠ في المئة من السكان بالإسلام، و٥ في المئة بالمسيحية، و٢٥ في المئة بديانات أفريقية مختلفة. هذه التعددية الإثنية (Multiplicity of Identities) التي تميز بها السودان دفعت بعض الباحثين إلى

(٤٤) مكي، المصدر نفسه، ص ١٢.

القول بأن الشمال نفسه متماسك أو مربوط (Hold Together) بعرى الإسلام والعروبة. ولولا الدين الإسلامي واللغة العربية لأصبح شمال السودان نفسه مجزأً إلى عدة دول، لأن الدين واللغة هما أقوى مكونات الهوية. لذلك نجد أن الشمال على اختلاف إثنياته تجمعه الهوية العربية الإسلامية بينما الجنوب ــ أيضاً، على اختلاف إثنياته ــ تربطه الهوية الأفريقية الزنجية المسيحية. لذلك فإن الجنوب توحده «الهوية الجنوبية» تجاه أو مقابل «الهوية الشمالية». ولذلك فإن الهوية هي المحرك الأساسي للصراع حول قسمة الثروة والسلطة. وإن معظم الصراعات في السودان هي صراعات هويات. هذا التحليل السوسيولوجي مهم لفهم المسألة السودانية فهماً صحيحاً ودقيقاً.

والهويات السودانية نفسها يمكن الحديث عنها على أساس مستويات مختلفة. يمكن الحديث ــ مثلاً ــ عن «هويات صغرى» و«هويات كبرى». فالهوية الجنوبية والهوية الشمالية هي هويات كبرى. لكن الهويات في داخل الشمال تتعايش سياسياً وتتفاعل اجتماعياً وتتواصل ثقافياً. وفي ذلك إثراء للهوية الكبرى (السودانية الشمالية) وهي تقوم على دعائم الدين واللغة. والتحليل ذاته ينطبق على تركيبة الهوية الجنوبية الكبرى التي قوامها الزنوجة والمسيحية؛ مع وجود بُعد نفسي أو عاطفي (Sentimental) للهوية الجنوبية مقابل الهوية الشمالية. هذا الجانب الوجداني تراكم عبر العصور باعتبار أن الشمال ينتمي إلى ثقافة أسمى ويضطهد الجنوب ويظلمه وأنه يستأثر بالثروة ويحتكر السلطة.

هذه الأطروحة تقودنا إلى تحليل الهويات الصغرى التي يتشكل منها السودان الشمالي. منطلق التحليل الذي تطرحه هذه الدراسة يختلف (جزئياً) عن ما يذهب إليه العديد من الباحثين في السودان الذين يتفق معظمهم على أن الصراع في السودان هو «صراع حول الموارد»[٤٥]. مع عدم إنكار دور الموارد كعامل مهم في الصراع، ترى هذه الدراسة أن الصراع في جوهره صراع هويات صغرى ومتوسطة وكبرى. تقصد الدراسة بهذا التقسيم أن الهويات الصغرى والمتوسطة في السودان الشمالي بين بطون القبائل أو بين قبيلة وأخرى. فالصراع حول المياه أو المشاجرات الفردية بين أفراد قبائل مختلفة (أحياناً حول امرأة أو أبقار أو مبايعة أو نحو ذلك) يختفي هذا الصراع في داخل بطون القبيلة الواحدة أو يتراجع لصالح القبيلة الأكبر أو ينتقل الصراع من كونه بين أفخاذ القبيلة الواحدة إلى الفرع الأكبر في القبيلة، أو إلى المجموعة القبلية الأكبر. مثلاً: الصراع بين قبائل المسيرية الحُمُر (فلايتة وعجايرة) يختفي لتتوحد قبيلة المسيرية الحُمُر ضدّ قبيلة أخرى من قبائل البقارة مثل المسيرية الزرق وهذه هويات صغرى. ثمّ تتوحد هذه القبائل ــ وتتجاوز خلافاتها ــ في مواجهة مجموعة قبلية أخرى خارج هذه المنظومة. وهكذا يختفي الصراع الداخلي في قبيلة واحدة ــ على مختلف مستويات تقسيماتها الداخلية ــ إذا كان الطرف الثاني في الصراع (حول الموارد مثلاً) هو قبيلة أخرى (الرزيقات مقابل المعاليا مثلاً) وهذه هويات متوسطة.

(٤٥) إبراهيم عكاشة علي، «الكنائس المحلية والسلام في السودان،» **دراسات أفريقية**، العدد ٣٣ (حزيران/يونيو ٢٠٠٥)، ص ١٥ ــ ١٦

وهكذا عندما ننتقل في دائرة الصراع حول الموارد إلى أعلى نجده بين هويات كبرى (الشمال والجنوب). فيتجلى هذا الصراع ــ في ظاهره ــ على أنه صراع موارد لكنه ينطوي أيضاً على صراع إثني وصراع بين الهويات. ذلك، لأنه إذا كانت هناك مجموعة عرقية في داخل إطار السودان الشمالي شعرت بالغبن والظلم فإن أقصى ما تطرحه هو حركة مطلبية وقد تتحول إلى تنظيم جهوي (مثل جبهة تطوير دارفور) أو حزب سياسي على أساس قبلي مثل جبال النوبة والبجا، ولا تثير هذه الجماعات موضوع السلطة أو الانفصال بل كان ما تطلبه العدالة والتنمية الشاملة. لذلك، ظهر مصطلح المناطق المهمشة (Marginalized Areas) وهو يعكس التعبير عن الظلم وينطوي على محاولة لفت انتباه الحكومة المركزية لضرورة معالجة الخلل في التخطيط والتنمية. الملاحظ أن هذا الخلل السياسي والاقتصادي يثير الهويات الصغرى، لذلك، تأتي هذه الصرخات والحركات المسلحة في الشرق وجبال النوبة ودارفور. وهي تؤكد على وحدة السودان وتطالب بالعدالة في توزيع الثروة والسلطة؛ بينما ينادي الصوت الجنوبي بالانفصال أو الكونفدرالية (Confederation). والكونفدرالية ما هي إلا مرحلة من مراحل ــ أو خطوة نحو ــ الانفصال. ولم تتنازل الحركة الشعبية لتحرير السودان ــ بقيادة الراحل العقيد جون قرنق في مرحلة المفاوضات مع الحكومة السودانية ــ إلا بعد أن ظهر في المفاوضات الخيار الأكبر وهو حقّ تقرير المصير الذي يتيح للجنوبيين كلّ الخيارات الأخرى سواء كان كونفدرالية أو انفصال.

أما المعادلة الاجتماعية الموجودة في أبيي (بين الدينكا باعتبارهم ممثلين للهوية الجنوبية، والمسيرية باعتبارهم ممثلين للهوية الشمالية) فهذه المعادلة تعبر عن واقع اجتماعي فرضته ظروف تاريخية موضوعية، نتج عن ذلك الواقع ظاهرة يمكن وصفها بأنها عملية تعايش سلمي (Peaceful Co-existence) وليست تكاملاً أو اندماجاً اجتماعياً (Social Integration). وهناك فرق كبير بين الاثنين. ولذلك عندما أثير موضوع قسمة السلطة والثروة ورسم الحدود بين الشمال والجنوب اندلعت الاختلافات بين المسيرية والدينكا. بمعنى أن موضوع الهوية ظهر إلى السطح كفاصل جوهري بين الطرفين. وهذا يؤكّد ما ذهبت إليه هذه الدراسة سابقاً من أن الصراع هو صراع هويات، لأن الطرفين كانا متعايشين في منظومة سلطة واحدة (الإدارة الأهلية) وكانا يشتركان في موارد واحدة. وهنا مثال حيّ للهويات الكبرى (شمال وجنوب).

في خلاصة هذا التحليل السوسيولوجي يمكن القول إن السودان الذي يشكل جزءاً كبيراً من بلاد السودان يتمتع بدينامية إثنية وتفاعل ثقافي واسع. إن هذا السودان هو نتاج لعملية تمازج بين النوبيين والعرب والبجا والزنوج السود. هذه الخصائص أهّلت السودان ليكون معبراً (Corridor) للثقافة الإسلامية ــ العربية لأفريقيا. كذلك أصبح بوتقة انصهار لإثنيات متعددة وثقافات متعددة من أصول عربية وأفريقية. كذلك يمكن القول إن صناعة الهوية السودانية الحديثة جاءت نتاجاً لعملية أسلمة وتعريب انتشرت سلمياً عبر الرُّحَل والصوفية والتجار والعلماء والتزاوج بين السكان المحليين والعناصر الحامية.

هذه التوليفة الإسلامية ــ العربية وجدت الاعتراف الواعي من النخبة الشمالية وقد

ظهرت في أدبيات المثقفين، منها جماعة الغابة والصحراء بوصفها رمزاً لهذا الانصهار بين العرب والأفارقة في البوتقة السودانية. غير أن هذا الاعتراف لم يجد طريقه إلى العقلية الجنوبية، بل لم يخترق الواقع الجنوبي.

من كلّ تلك المقدمات والمعطيات والتحليل السوسيولوجي (الدين والهوية والثقافة) يمكن أن نستخلص الحقائق التالية:

١ ــ إن الهويات الشمالية تشكل هويات صغرى تربطها الهوية الإسلامية في هوية كبرى واحدة برباط قوي، بينما ينتفي أو يضعف هذا الرابط بالنسبة إلى علاقة الشمال بالجنوب.

٢ ــ إن عملية السلام المستدام تحتاج إلى عملية دمج الهويات، وهذا يصعب الآن، وقد يحتاج الأمر إلى أجيال حتّى يتم تذويب الهويات الجنوبية في الهوية السودانية ــ وإن كانت هذه الدراسة تستبعد إمكانية ذلك، لأن الجنوبيين سوف يقاومون بشدة هذا الاتجاه. وهناك عوائق كبيرة من ضمنها انتشار المسيحية في العقل الجنوبي (وليس في الجغرافيا الجنوبية) بوصفها عقيدة وانتماء ثقافياً وحضارياً يشكل ركناً أساسياً للهوية الجنوبية.

٣ ــ إن التعايش السلمي قد يوقف الحرب ويخلق هدنة وسلاماً نسبياً ومؤقتاً، لكنه لا يحقق وحدة مستدامة ــ بمعنى وحدة تقوم على بناء اجتماعي متماسك في إطار هوية واحدة، لإيجاد الأمة السودانية التي تربطها روابط الدين الواحد واللغة الواحدة والثقافة الواحدة.

ثالثاً: مهددات الوحدة (مقاربة إمبيريقية)

هذا الجزء من هذه الدراسة عبارة عن تسجيل لمقولات ووقائع وأحداث تعبر عن الصورة الذهنية التي يحملها الجنوبي عن الشمال (أو الشمالي). هي ملاحظات ووقائع وأحداث تغطي فترة ربع قرن من الزمان. وهي، وإن كانت أمثلة محدودة، تخدم محاولة استقرائية بسيطة، يمكن أن تساعد على فهم واقع العلاقة بين الشمال والجنوب، والتنبوء بمآلاتها في المستقبل:

١ ــ عندما كنا طلبة في جامعة الخرطوم (١٩٧٨ ــ ١٩٨٢ م) وكانت الداخليات لِكُلّ الطلبة وبالمجان، وكذلك نظام الإعاشة، لاحظتُ أن الطلبة الجنوبيين يميلون للسكن بعضهم مع بعض في غرف الداخليات ــ أي نادراً ما يسكن طالب من جنوب السودان مع طلاب من الشمال في غرفة واحدة. كذلك في صالة الطعام (السفرة) يدخلون معاً ويجلسون على مائدة واحدة ــ غالباً ما يكون ذلك في أقصى ناصية في السفرة ــ ولا يشاركون الشماليين في المائدة. كذلك الحال في النشاط الطلابي وفي التنظيمات السياسية كانت لهم أحزابهم السياسية الخاصة بهم، مثل: حزب الجبهة الأفريقية الوطنية (The African National Front - ANF)، وهو حزب الطلبة الجنوبيين الذي كان يمارس نشاطه السياسي في داخل الحرم الجامعي فقط. إضافة إلى انتماء بقية الطلبة الجنوبيين ــ الناشطين سياسياً ــ إلى أحزاب جنوبية أخرى خارج الجامعة وكان أشهرها حزب (سانو: The Sudan African National Union - SANU).

٢ ــ عندما كنت أحضِّر لدرجة الدكتوراة في شعبة العلوم السياسية في جامعة الخرطوم في عام ٢٠٠٢ جاء إلى الشعبة مراسل قناة الجزيرة لإجراء استطلاع حول «العلاقات العربية ــ الأمريكية». طلب مراسل الجزيرة من اثنين من طلبة الدراسات العليا ــ في العلوم السياسية ــ أن يتحدثا في هذا الموضوع. وتصادف أنهما كانا من الجنوب (جنوبيين). فرفضا الحديث عن الموضوع بحجة أنهما ليسا من العرب؛ وبالتالي ليسا طرفاً في هذا الموضوع ليتحدثا فيه!.

٣ ــ عندما تنشب مشاجرة في وسائل النقل العام بين مواطن شمالي وآخر جنوبي عادة يتدخل أي جنوبي في تلك المركبة مدافعاً عن الطرف الجنوبي على الرغم من عدم وجود أي علاقة (أو حتّى قبيلة) تربطهما باستثناء الانتماء للإقليم الجنوبي. بينما يجد الشمالي نفسه وحيداً أمام مجموعة من الجنوبيين تستعد لضربه. مثل هذه المواقف تتكرر كثيراً وهو أمر معروف للمواطن الشمالي. وهذا يعني أن أبناء الجنوب ــ على اختلاف قبائلهم ــ تجمعهم الهوية الكبرى (الأفريقانية ــ الزنجية ــ المسيحية) إضافة إلى الإحساس المشترك بأن الشمالي يحتقر الجنوبي. أميز المفكرين الباحثين الجنوبيين (فرانسيس دينغ) يؤكّد هذه الرؤية عند حديثه حول الهوية الشمالية: «تغلغلت العروبة وانتشر الإسلام في الشمال حيث قام مجتمع على النظام الطبقي العرقي الذي مكَّن للعرب وثقافتهم الراقية من الغلبة. تدعَّم وضع العرب في الشمال نتيجة الغزو الحربي المدعوم بالثراء المادي، والمكانة المرموقة لحضارة العروبة والإسلام التي رفعت من قدرهم. وخلافاً لذلك، أُعتبر الزنجي الأفريقي منحطاً، عبداً كان أو قابلاً للاسترقاق يرزح تحت القهر. تطور الانتماء عبر القرون انتقائياً، محتوياً العادات والطقوس المحلية التي صعب التخلص منها مع التمسك بأهمية المظلة العربية الإسلامية كمظهر لوحدة المجتمع. ومع ذلك استمرت الطبقية والتمييز لتحقير المواطنين من غير العرب وغير المسلمين[٤٦] فإذا كانت هذه هي الصورة التي تحملها النخبة الجنوبية فلا غرو أن يكون موقف وسلوك الجنوبي تجاه الشمال معبراً عن تلك الرؤية.

٤ ــ غياب الزواج بين شطري السودان إلا في حالات نادرة تنحصر في زواج بعض الشماليين من جنوبيات. وهؤلاء معظمهم من التجار الشماليين الذين يعملون في الجنوب وبحكم عملهم تكون إقامتهم في الجنوب أكثر من الشمال. بل انقطع بعضهم عن أسرهم في الشمال لفترة طويلة لذلك تضطره الظروف للزواج من جنوبية. في مقابل هذه الحالات القليلة جداً والمحدودة لا نجد شمالياً يوافق على زواج ابنته من جنوبي، وربما البنت نفسها لا تقبل بجنوبي. ولذلك ينعدم أهم عامل في الاندماج الاجتماعي التزاوج (Intermarriage) الذي ساهم على مرّ العصور في انصهار وتمازج الكثير من القبائل في الشمال. فتعززت الهوية الكبرى في الشمال التي تقوم على الدين الإسلامي والثقافة واللغة العربية.

(٤٦) من حديث حسن مكي للتلفزيون السوداني صباح الخميس في ٢٠٠٥/٩/٢٢.

٥ ــ ينظر الجنوبيون ــ وبخاصة المؤيّدون للحركة الشعبية لتحرير السودان (SPLM) ــ للتعريب الذي تبنته حكومة الإنقاذ الوطني في بداية التسعينيّات من القرن العشرين بأنه وسيلة لاقصائهم وحرمانهم؛ وقال البعض «إن سبب دخولهم الغابة «أي تمردهم» هو سياسة التعريب»[٤٧].

٦ ــ بسبب الحرب ونزوح أكثر من ثلاثة ملايين جنوبي إلى الشمال نقلوا معهم عاداتهم وشيدوا الكنائس في الشمال. وارتفعت أصوات العديد من الأئمة في المساجد تندد بظهور الكنائس في الأحياء السكنية. بل ينظر الكثير من الشماليين إلى الجنوبيين بأنهم (نصارى). وهي كلمة لها مدلول سلبي جداً في ذهنية المواطن الشمالي المسلم. لذلك فإن هذا الوجدان الديني ــ المفعم بتلك النظرة والمشحون بكراهية الآخر بسبب اختلاف الدين ــ يجعل من العسير تحقيق عملية الاندماج الاجتماعي بين الطرفين.

٧ ــ ترتبط بالنقطة السابقة عملية غياب أو اهتزاز الثقة بين الطرفين وقد نتج من هذا الأمر الكثير من المشكلات وأدى إلى تأخير الكثير من الاتفاقات، بل وأدى إلى فشل البعض الآخر. عدم الثقة بين الطرفين عبَّر عنه أحد السياسيين الجنوبيين هو (أبيل ألير) الذي عمل في مجال القضاء ونائباً لرئيس الجمهورية في عهد حكومة أيار/مايو التي وقعت مع الجنوبيين اتفاقية أديس أبابا في عام ١٩٧٢. لخصّ أبيل ألير عدم الثقة (أو عدم ثقتهم في الشماليين) في كتاب تحت عنوان: **اتفاقيات كثيرة نُقِضت** *(Too Many Agreements Dishonoured)*. وكمثال آخر لعدم الثقة، فقد عقد سلفاكير النائب الأول لرئيس الجمهورية ورئيس حكومة الجنوب ورئيس الحركة الشعبية لتحرير السودان (حركة التمرد سابقاً ــ قبل اتفاقية نيفاشا بنيروبي للسلام في ٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥) عقد مؤتمراً صحفياً في القصر الجمهوري في الخرطوم في ٢٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ انتقد فيه المؤتمر الوطني الذي تشاركه الحركة في الحكم، متهماً إياه بتهميش الحركة وتجاهلها في كثير من الأمور وأنهم لا يعرفون الأرقام الحقيقية لإنتاج النفط، وأنهم لم يتسلموا نصيبهم من عائدات تصدير النفط السوداني. كذلك عندما زارت ربيكا (زوجة الراحل قرنق) الولايات المتحدة الأمريكية في شباط/فبراير ٢٠٠٦ ــ من دون علم سفارة السودان في واشنطن ــ حيث انتقدت المؤتمر الوطني ــ الشريك في الحكم بعد اتفاقية السلام ــ ووصفته بالمنافق، وأنه يخفي الإنتاج الحقيقي للنفط ويحجب عنهم (أي الحركة الشعبية) عائدات تصديره ونصيب الجنوب منه. وقالت إن المعلومات محجوبة عن الحركة الشعبية، وهذا أضعف الثقة بين الطرفين. وقالت إن بوادر الانفصال قد لاحت في الأفق. وطالبت منح حكومة الجنوب منصب سفير لجنوب السودان في كلّ من واشنطن ولندن[٤٨]. هذه كلها خطوات تؤكد نية الحركة العمل في اتجاه الانفصال.

---

(٤٧) Deng, *War of Visions: Conflict of Identities in the Sudan*, p. 41.

(٤٨) **الرأي العام** (الخرطوم)، ٢٠٠٦/٢/١٨.

٨ ــ وفي مدن شمال السودان يلعب الأطفال لعبة اسمها «لعبة الحرب» حيث ينقسم التلاميذ إلى مجموعتين: مجموعة تمثل الشماليين وأخرى تمثل الجنوبيين! هذا يعني أنه قد ترسخت في عقول هؤلاء الأطفال صورة ذهنية محددة فحواها أن العلاقات بين الشمال والجنوب علاقات حرب وعداء دائم، وهذه الصورة الذهنية قد تعيش في أذهان الأطفال أجيالاً وربما لا تتغير أبداً مادامت متجذرة في شكل ثقافة وتاريخ وحالة نفسية، وأضحت سلوكاً متوارثاً في الشمال.

٩ ــ إن الجنوبيين في شمال السودان لم يندمجوا في مجتمع الشمال؛ فقد جاءوا بعاداتهم ونقلوا معهم كلّ طقوسهم. بصفتهم أفراداً يتعاملون مع المجتمع في الشمال بما تقتضيه ضرورات الحياة من العمل مع الشماليين والدراسة في مدارس واحدة معهم. بل هناك صداقات مع الشماليين لكنها محدودة، لكن على المستوى المجتمعي والعقل الجمعي يظل الإحساس بالاختلاف موجوداً. فالملاحظ أن الجنوبيين لا يشاركون الشماليين أعراسهم والعكس. كما إنَّ الجنوبيين يمارسون عاداتهم ولم يتخلوا عنها، سواء أكان في الأفراح أم المآتم. فهم يعيشون في الشمال كما لو كانوا جالية أجنبية.

١٠ ــ ورد في الأخبار (أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥) أنه قد جرت مسابقة اختيار ملكة جمال لجنوب السودان، لأول مرة في تاريخه، في العاصمة الكينية نيروبي الذي تنظمه جمعية فناني جنوب السودان بنيروبي بالتعاون مع شركة دلتا الكينية وبدعم من بعض المنظمات الدولية غير الحكومية. تشترك الفائزة ضمن عشر مشتركات تم اختيارهن من ٢٢ متسابقة ــ تشتركن في مسابقة إقليمية تقام في جنوب أفريقيا لاختيار واحدة من عديد من الدول الأفريقية المشاركة[٤٩]. بالطبع مثل هذا الموضوع لا يقره المجتمع الشمالي لأن من شروط المسابقة ــ كما هو معروف ــ أن ترتدي المتسابقة (البيكيت)، أي أنها تكون شبه عارية تماماً. كذلك هذا الحدث يدلّ على أن الجنوب يعبر بذلك عن ارتباطه ثقافياً بالقارة الأفريقية (بخاصة في دول مثل كينيا ويوغندا) أكثر من انتمائه لشمال السودان. وهذا أيضاً يعكس توجهاً ثقافياً أفريقياً ومفاصلةً مع التوجهات الثقافية في الشمال.

١١ ــ أصدر مجلس وزراء حكومة أعالي النيل (إحدى ولايات جنوب السودان) قراراً بمنع ارتداء الطالبات الحجاب والخمار داخل مدارس الولاية حيث بدأ تنفيذه في ٥ تموز/يوليو ٢٠٠٦. هذا يعني موقفاً واضحاً معادياً للإسلام وللشماليين المسلمين الأمر الذي لا يشجع على تعايش سلمي مستدام[٥٠]. في عام ٢٠٠٤ عندما تمّ اختيار الخرطوم عاصمة للثقافة العربية للعام ٢٠٠٥ كتب صحافي جنوبي في صحيفة تصدر في الخرطوم باللغة الإنكليزية هي صحيفة **سودان فيجن** *(Sudan Vision)* ــ في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤ ــ مستنكراً تسمية الخرطوم عاصمة عربية. واستنكر عملية استضافة الخرطوم الثقافة

(٤٩) **الرأي العام**، ٢٠٠٥/١٠/١٠.

(٥٠) **الصحافة** (الخرطوم)، ٢٠٠٥/٩/٣٠.

العربية وتساءل بشدة: من الذي قال لكم إن السودان دولة عربية؟ ولماذا تفرضون الثقافة العربية في دولة معظم سكانها من الأفارقة؟ وقال إن ثقافتنا أفريقية وليست عربية.

١٢ ــ في أول تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥ نقلت صحيفة **خرطوم مونيتر** *(Khartoum Monitor)* نقلاً عن صحيفة **نيو فيجن** اليوغندية أن السودانيين في مدينة ياي (أي الجنوبيين) يرفضون الدينار لأنه عملة عربية وجزء من عملية الأسلمة[٥١].

١٣ ــ جامعة جوبا التي أسست في مدينة جوبا عاصمة الإقليم الجنوبي في نهاية السبعينيّات من القرن الماضي تمّ نقلها إلى الشمال بسبب الحرب، شهدت عدة أحداث عنف طلابية، عدة مرات، كان آخرها في شباط/فبراير ٢٠٠٦ والتي بسببها تمّ إغلاق الجامعة إلى أجل غير مسمّى. وعلى الرغم من أن بعض مطالب الطلاب مشروعة ــ مثل المطالبة باتحاد للطلبة وتعديل الدستور، إلا أن الأحداث اتخذت منحىً تخريبياً وتم تصعيدها في اتجاه آخر حيث شملت المطالب: (أ) المطالبة بإرجاع الجامعة إلى مدينة جوبا؛ (ب) الاحتجاج على زراعة شجر النخيل بمباني الجامعة لأنه رمز للعروبة والإسلام، على أن يُزْرَع بدلاً منه التيك والمهوقني (أميز أشجار الجنوب)[٥٢].

١٤ ــ أنشأت الحركة فضائية خاصة بها بررت الحركة هذه الخطوة بأن قناتها الفضائية ضرورة فرضها «الإقصاء والتهميش» الذي يمارسه التلفزيون الحكومي والعقلية التي تسيطر عليه..»[٥٣].

١٥ ــ بعد توقيع اتفاقية نيفاشا تواترت أخبار بين نهاية العام ٢٠٠٥ وبداية العام ٢٠٠٦ من عدة مناطق في الجنوب ــ نقلتها صحف الخرطوم ــ تفيد أن الجنوبيين في بعض مدن الجنوب طلبوا من الشماليين، تجاراً وغيرهم، إبراز تأشيرة الدخول إلى الجنوب.

١٦ ــ وقعت حكومة الجنوب اتفاقيات مع شركة النيل الأبيض للنفط للتنقيب في الجنوب ما أثار جدلاً كما أثار حفيظة حكومة الخرطوم. كما وقعت حكومة الجنوب مع شركات لتشييد خطّ أنابيب ناقل لنفط الجنوب إلى كينيا ويوغندا وإنشاء مصفاة في كينيا لتكرير بترول الجنوب[٥٤]. وحتّى في مجال التدريب اتجهت حكومة الجنوب لتدريب كوادرها في دول أفريقية بدلاً من الخرطوم، مثل جنوب أفريقيا (التي أهدت حكومة الجنوب طائرة رئاسية) وكينيا (معهد موي) لتدريب الجنوبيين حول كيفية إدارة حكومتهم[٥٥]. كما تعاقدت الحركة الشعبية مع شركة أمنية أمريكية خاصة (في آب/أغسطس ٢٠٠٦) لتأهيل

(٥١) **الوطن** (الخرطوم) ٢٠٠٦/٧/٧.

(٥٢) **الرأي العام**، ٢٠٠٦/٤/٢٩، ص ٣.

(٥٣) *Khartoum Monitor*, 30/9/2005.

(٥٤) **الرأي العام**، ٢٠٠٦/٢/٢٠.

(٥٥) **السوداني** (الخرطوم)، ٢٠٠٦/٣/١٨.

جيش الحركة الشعبية ليصبح جيشاً احترافياً ابتداءً من العام ٢٠٠٧م. وقد حصلت الشركة الأمريكية (ديان كروب انترناشونال) على عقود من وزارة الخارجية الأمريكية تبلغ (٤٠) مليون دولار لتدريب عناصر جيش الحركة وتوفير الاتصالات اللاسلكية وبناء ثكن عسكرية في الجنوب بواقع ثكنة لِكُلّ ولاية تسع الواحدة بين ٣ إلى ٥ آلاف جندي محصنة ضدّ التفجيرات(٥٦).

١٧ ــ حديث الحركة الشعبية ــ قبل وفاة قائدها د. جون قرنق في حادث طائرة (٢٠٠٥/٣٠) ــ حول بنك مركزي في الجنوب وعُملة خاصة بالجنوب، وشيفرة (code) هاتف مختلفة عن شيفرة بقية السودان، كلها تشير إلى ترتيبات لدولة مستقلة.

١٨ ــ دعا رئيس الكنيسة الكاثوليكية في الجنوب إلى أن تعمل حكومة الجنوب على جعل الانفصال جاذباً. قال ذلك في منبر الكنيسة وصمتت حكومة الجنوب ولم تعلق على ذلك(٥٧). كذلك في الشمال ظهر تيار يدعو إلى فصل الجنوب عن الشمال ومن أبرز قادة هذا التيار الطيب مصطفى (أحد أقرباء الرئيس السوداني)، وأصبح لهذا التيار منابر وصحيفة ناطقة بلسانه هي الانتباهة. وفي زيارةٍ له إلى عاصمة الجنوب، جوبا، (٢/١٤/ ٢٠٠٦) أعلن الرئيس السوداني المشير عمر حسن أحمد البشير وبالصوت العالي وهو يخاطب الجماهير بأن الحكومة ترحب بخيار شعب الجنوب بعد الفترة الانتقالية. فإذا اختار الجنوبيون الوحدة فمرحباً بها، وإذا اختاروا الانفصال فمرحباً به.

١٩ ــ عند وفاة جون قرنق لم يُلَفَّ صندوق جثمانه بعَلَم السودان المعروف بل بعلم الحركة الشعبية.

٢٠ ــ عند وفاة العقيد د. جون قرنق (النائب الأول لرئيس الجمهورية وقائد الحركة الشعبية لتحرير السودان ورئيس حكومة الجنوب) في حادث سقوط الطائرة الرئاسية اليوغندية بالقرب من الحدود السودانية اليوغندية في طريق عودته من زيارة ليوغندا (٢٠٠٥/٧/٣٠) وعندما أعلنت الخرطوم رسمياً وفاته مساء اليوم التالي (٧/٣١)، اندلعت في صبيحة اليوم التالي (الاثنين ١ آب/أغسطس ٢٠٠٥) أحداث عنف بادر إليها الجنوبيون في الخرطوم مات فيها أكثر من ١٣٠ مواطناً وجُرِح العشرات. وفي صبيحة اليوم التالي (الثلاثاء) كان هناك ردّ فعل من الشماليين؛ ومع ذلك مرت هذه الأحداث بأقل الخسائر بسبب الموقف الحكيم من السلطات الأمنية في الخرطوم حيثُ إنَّها لم تتدخل في الساعات الأولى التي اندلعت فيها أحداث العنف.

هذه الأحداث ــ التي عُرِفت بأحداث الاثنين ــ زادت من الفجوة بين الشمال والجنوب. هذه الأحداث لم تكن هي الأولى من نوعها فقد حدثت قبل أربعين عاماً أحداث مماثلة لها عُرفت بأحداث الأحد الدامي (في ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٤) حيث قام

(٥٦) **الرأي العام**، ٢٠٠٦/٢/٢٩.

(٥٧) **الرأي العام**، ٢٠٠٦/٨/١٣.

الجنوبيون في الخرطوم بأعمال عنف ضدّ الشماليين عندما تأخرت طائرة وزير الداخلية السوداني الذي كان من أبناء الجنوب (كلمنت امبورو) إذ راجت إشاعة بأن الشماليين قد اغتالوه. لكن الطائرة وصلت فيما بعد ووصل فيها الوزير سالماً.

هذه الأحداث (١٩٦٤ و٢٠٠٥) أكدت أن هناك حاجزاً نفسياً كبيراً بين الشماليين والجنوبيين. تلك الأحداث أثارت في عقول الشماليين سؤالاً ممزوجاً بالحيرة: ما هي علاقة المواطن الشمالي بوفاة جون قرنق في حادث طائرة يوغندية؟ لماذا يدفع المواطن الشمالي ثمناً لحادثة لم يشارك فيها، ويتعرض الشمالي للقتل والذبح والضرب وتدمير متجره وحرق سيارته وحتّى اغتصاب زوجته أو ابنته إضافة إلى الترويع الذي حدث؟

كان التفسير الوحيد المتفق عليه لدى الشماليين أن ذلك يعبر عن «حقد». لكن لماذا يحقد الجنوبي على الشمالي؟ ــ هل الشمالي تسبب في تخلُّف الجنوب؟ إن الجنوب متخلف لأسباب تاريخية موضوعية، وزاد من تخلفه إغلاق الاستعمار البريطاني له فلم تنتقل التنمية من الشمال إلى الجنوب. كما إنَّ عدم الثقة كان وليد ظروف تاريخية ونفسية، منها تجارة الرقيق. ثمّ تعزز ذلك الجدار النفسي بتشكيل لجنة السودنة التي كان نصيب الجنوبيين فيها ثلاث وظائف من جملة ثمانمئة وظيفة، ثمّ كان التمرد الأول في رمبيك في عام ١٩٥٥. ومن حينها بدأت حرب أهلية طويلة لم تتوقف إلا عقداً من الزمان باتفاقية أديس أبابا في عام ١٩٧٢. ثمّ عادت الحرب الأهلية مرة أخرى بالتمرد الذي قاده ضباط من بينهم جون غارينغ الذي وقع اتفاقية سلام في ٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥.

الملاحظ أن هذه الأمثلة التي اختارتها هذه الدراسة بوصفها نماذج لتكشف بعضاً من أسباب توتر العلاقات بين الجنوب والشمال قد شملت جوانب سياسية وثقافية ونفسية واجتماعية واقتصادية ودينية. إن القراءة الموضوعية لهذه المقولات والوقائع والأحداث تعزز طرح هذه الدراسة الذي يركز على المدخل السوسيولوجي الشامل في محاولة لتقديم تفسير أكثر شمولاً وعمقاً لمشكلة العلاقات الجنوبية ــ الشمالية بِكُلّ تعقيداتها وتجلياتها.

إن الأمر ــ في تقدير هذه الدراسة ــ أكبر من اتفاقية سياسية بين طرفين (حزبين) ــ مع عدم اشتراك قوى سياسية أخرى في الشمال والجنوب. وكذلك أكبر من اختزاله في موضوع الثروة والسلطة. فالأمر يرتكز على نقطة أساسية هي: مسألة الهوية ــ بِكُلّ أبعادها التاريخية والنفسية والثقافية والاجتماعية.

خاتمـــة

خلاصة هذا الطرح هو أن توقيع اتفاقية السلام الشامل في كينيا (٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥م) تكمن قيمته في وقف الحرب. لكن لا يمكن الاعتماد عليه في تأسيس مجتمع سوداني متكامل (Integrated Society)؛ لأن التعويل على اتفاقية السلام باعتبارها حلاً جذرياً يعكس رؤية قاصرة وقد يثبت الواقع عدم صدقيتها. هناك فرق كبير بين الواقع الاجتماعي واطروحات السياسيين. وتمثل اتفاقية السلام أحد هذه الاطروحات. ذلك، لأن هذه

الاتفاقية تختزل مشكلة معقدة ــ مثل مشكلة الهوية ــ في معالجات سياسية ــ اقتصادية. لذلك تصرّ هذه الدراسة على المدخل السوسيولوجي لتوصيف جوهر العلاقة الجنوبية ــ الشمالية لأن جوهر العلاقات يكمن في البعد الاجتماعي وليس السياسي أو الاقتصادي.

دينياً وأيديولوجياً يبدو أن التصورات التي تحملها العقلية السياسية للنخبة الجنوبية قد تأسست على أن الحكومة المركزية في الشمال وبتوجهها الإسلامي تسعى إلى إقامة مجتمع إسلامي توحيدي متجانس (Monolithic and Homogeneous)[٥٨].

هذه الاتفاقية بالرغم من عظمتها وقيمتها في إيقاف الحرب إلا أنها، بطابعها السياسيي والاقتصادي تظل قاصرة عن تحقيق الاندماج الكامل بين شعب الشمال وشعب الجنوب. فهي ــ سياسياً ــ تشرك الجنوبيين في مركز القرار، واقتصادياً تزيل الشعور بالظلم. غير أن كلّ ذلك يظل تدابير سياسية واقتصادية لا تمس جوهر البناء الاجتماعي، أو تغيِّر من طبيعة العلاقات الجنوبية الشمالية، ولا يمكنها تحقيق اندماج الهويات الشمالية الجنوبية بما يحقق الوحدة الوطنية الكاملة والمستديمة.

إن الأمر يحتاج إلى جهد كبير ودور فاعل من المفكرين والعلماء في صياغة برنامج وطني للاندماج، من خلال آليات محددة، مثل عملية تثاقف مستمرة ــ من خلال توظيف وسائل الإعلام هذا الهدف ــ وتوفير أطر التواصل الاجتماعي مثل انخراط الجنوبيين في منظمات المجتمع المدني والأهلي في الشمال وتشجيع التزاوج وتعزيز التعايش الديني وانتهاج خطاب ديني يزيل الهواجس والحواجز وتعديل القناعات القديمة التي ترى في الآخر ديناً مغايراً يقصي الطرف الثاني أو يرى فيه نقيضاً لدينه.

لكن كلّ ذلك يحتاج إلى وقت طويل بعد إزالة آثار الحرب وتجاوز مرارات الماضي. ولتحقيق عملية الاندماج الاجتماعي الشاملة والتكامل الوطني في المدى البعيد، وهي تعتمد على عملية (هرمنة) للهويات السودانية المتعددة بتفعيل تلك الآليات التي سبق الإشارة إليها. لكن تحتاج الحكومة إلى عدة تدابير للتمهيد لتلك العملية، منها:

- **أولاً**: إحداث تنمية شاملة وبخاصة في مجال مشاريع البنية الأساسية في الولايات الجنوبية وفي مجال الخدمات لوضع أول لبنة في أرضية بناء الثقة بين الطرفين.

- **ثانياً**: التمهيد لعملية الاندماج الاجتماعي والتواصل الثقافي عن طريق الحوار الفكري المتواصل بين النخبتين الشمالية والجنوبية لإزالة الحواجز وتعديل الصورة الذهنية النمطية التي تراكمت عبر التاريخ.

- **ثالثاً**: ألّا يكون الاستفتاء حكراً على الجنوب، بل أن يتم استفتاء الشماليين، أيضاً، باعتباره ضماناً لعدم وجود تيار أو قوى شمالية رافضة للوحدة مع الجنوب فتهدد مستقبل الوحدة إذا ما تمت وفق موافقة الجنوبيين فقط.

(٥٨) **الرأي العام**، ٢٠٠٦/٢/٤.

إذاً، ينبغي أن يكون الاستفتاء للشماليين والجنوبيين للتأكد من القناعة الشعبية التامة والإجماع الجماهيري حول الوحدة. لكن من دون ذلك فليس هناك ما يضمن أن تتحقق الوحدة المفروضة رسمياً من جانب واحد هو الجنوب. مثل هذه الوحدة على الأرجح لن تكون مستدامة، وبخاصة بعد أن دخل النفط باعتباره عاملاً جديداً في معادلة قسمة الثروة وهو من المحتمل أن يكون عامل صراع داخلي، وعاملاً جاذباً أيضاً للتدخل الخارجي، لأن النفط أينما وُجِدَ غالباً ما يكون محركاً للأطماع الدولية، وبخاصة في الدول الصغيرة والضعيفة عسكرياً والمضطربة سياسياً.

إن الحل الشامل والجذري ينبغي أن ينطلق من هذه الرؤية المتكاملة للسلام، وإلا ربما يكون مصير اتفاقية نيفاشا (كينيا ٢٠٠٥) هو ذات مصير اتفاقية أديس أبابا (إثيوبياً ١٩٧٢) من حيث احتمال ظهور نخبة جنوبية جديدة تنتقدها وتنقضها وترفضها، وبالتالي، تنقلب عليها ويعود السودان مرة أخرى لدوامة التمرد والحرب الأهلية والتدخل الدولي، وكل ذلك يكون خصماً لاستقرار البلاد والتنمية ومستقبل الوحدة، ويدفع الشعب السوداني الثمن باستمرار من الأرواح والموارد. ومثل هذا السيناريو يمكن أن يتم بعناصر جنوبية جديدة لها طرح آخر، ربما من منطلق ديني، أو أيديولوجي، أو كليهما معاً وتدعو إلى الانفصال الكامل.

جانب آخر مهم حول ضمانات استدامة السلام هو أن تضع الحكومة السودانية في الاعتبار أن وفاة جون غارينغ لا يعني نهاية أيديولوجيا الحركة الشعبية. فالحركة الشعبية لها مبادؤها وأدبياتها التي ما تزال النخبة الجنوبية متمسكة بها. فرؤية الحركة المتمثلة في «السودان الجديد» تنطوي على خيارات أساسية، على رأسها إقامة سودان جنوبي مستقل، قوامه كونفدرالية (Confederacy) من النيليين والاستوائيين لتشكيل «جمهورية أزانيا» (Republic of Azania). فهل بتوقيع اتفاقية السلام تخلت الحركة الشعبية عن هذا الخيار؟ ربما يكون خيار السلام قد أصبح قوياً وواقعياً للحركة الشعبية بوصفه مرحلة انتقالية. بمعنى أنه لا يعني تخلي الحركة عن خياراتها الأخرى بقدر ما يعني تأجيلها وإعطاء فرصة للسلام الذي يمكن أن يحقق لها أهدافها الاستراتيجية بطريقة أفضل مما يمكن تحقيقه بالحرب ــ وبخاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار الضغوط الدولية على الطرفين تجاه الحل السلمي، إضافة إلى الجانب الإنساني حيث مات بالحرب أكثر من مليوني سوداني وشرِّد أكثر من ثلاثة ملايين من الجنوب الذين دُمِّرت فيه البنية التحتية وتوقفت التنمية إضافة إلى الآثار الاجتماعية والنفسية للحرب[٥٩].

كذلك يجب أن نضع في الاعتبار أن الحركة الشعبية قد أسست منظومة من العلاقات الدولية وبرعت في العلاقات العامة بتسويق قضيتها عبر الإعلام الدولي فوجدت قضيتهم

(٥٩) Robert O. Collins, «Africans, Arabs and Islamists: From the Conference Tables to the Battlefields in the Sudan,» paper presented at: The Fourth Triennial Meeting of the International Sudanese Studies Association, 12- 14 June 1997.

تعاطفاً من المجتمع الدولي وبخاصة المنظمات الكنسية والحكومات الغربية التي دعمتها سياسياً ومادياً ودبلوماسياً وإعلامياً. ولكن بسبب أن الحرب لم تؤد إلى نتيجة واضحة ــ منتصر ومهزوم ــ وأمام المعاناة الإنسانية للمواطن الجنوبي، جاءت ضغوط الغرب في اتجاه السلام ليمهد لتقرير المصير؛ وفي ذلك ضمنياً دعم لخيارات الحركة الشعبية لتحرير السودان.

كذلك ينبغي أن نستصحب في قراءتنا للواقع ــ ورؤيتنا للمستقبل ــ حقيقة مهمة وهي أن مناخ العلاقات الدولية الراهنة يقوم على نظام دولي أحادي ينطوي على أفكار أساسية تؤمن بصراع الحضارات. وهذا يعزز الخط الداعم لتأسيس دولة جنوبية مسيحية تشكل إضافة لمحور الغرب المسيحي في مواجهة الأيديولوجيا الإسلامية في سياق صراع الحضارات.

ولذلك يظل الطرح السوسيولوجي الذي تتبناه هذه الدراسة هو المدخل السليم ــ في اعتقاد الباحث ــ للتأسيس لحل جذري للمشكلة وفق خيارين: إما تحقيق التكامل والاندماج الاجتماعي بين الشعبين وهذا يحتاج ــ مع التدابير التي اقترحتها هذه الورقة ــ إلى أجيال وذلك في المدى البعيد؛ وإما أن نخضع للمعطيات الموضوعية ولحقائق الواقع الاجتماعي الحالي ونتبنى خيار الانفصال الآن. وهذا الخيار الأخير هو الذي تراه هذه الدراسة الأقرب إلى الواقع لأنه يتعذر تحقيق وحدة مستدامة بين الطرفين في غياب الاندماج الاجتماعي بين شعبين مختلفين في الخصائص الاجتماعية والهوية الثقافية ■